اللغة العربية واللغة اللاتينية
(مقارنة تاريخية)

- المرحوم - الأستاذ ساطع الحصري

ان قضية الفصحى والعامية في اللغة العربية ، لهي من القضايا التي تثار من حين الى حين ، منذ عدة عقود من السنين .

يثيرها – على الاكثر – بعض الذين يدعون الى التخلي عن الفصحى . والتحول عنها الى العامية . في الكتابة والخطابة والحوار . ولاسيما في القصص والمسرحيات .

ويستند هؤلاء في دعوتهم هذه الى ملاحظات عديدة ومتنوعة اهمها واعمها – على ما أعتقد – يحوم حول تشبيه العربية باللاتينية .

انهم يقولون : «ان حالة العربية الفصحى الآن . لا تختلف عن حالة اللاتينية الكلاسيكية قديما . فمصيرها شبيه بمصير اللغة المذكورة حتماً . من المعلوم ان اللاتينية ماتت . بعد أن ولدت اللغات الفرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية والرومانية .. التي تعرف الآن باسم (اللغات اللاتينية) . وهذه اللغات أصبحت منذ عدة قرون لغات علم وأدب . بعد أن كانت بمثابة (لغات عامية) مدة غير قصيرة من الزمن . وأما اللاتينية الاصلية فقد اندثرت وماتت ، بعد أن كانت هي لغة الادب والعلم في معظم بلاد الغرب ، مدة قرون عديدة.»

«فلابد أن يحدث مثل ذلك في اللغة العربية أيضا . فمن العبث أن تبذل الجهود لتأخير هذا المصير . بل من الخير لنا أن نؤمن بذلك من الآن . فنوجه جهودنا الى جعل (العامية) لغة الكتابة والعلم والادب ، بوجه عام ...»

إن أمثال هذه الملاحظات تسيطر على أذهان الكثيرين ممن يقولون بوجوب عدم التمسك بالعربية الفصحى ، وهي تظهر من خلال احاديثهم وكتاباتهم بأشكال وأسباب شتى .

ولهذا السبب . أعتقد بأن بحث قضية الفصحى والعامية يجب أن يبدأ بدرس هذه (الحجة الاساسية) . يجب علينا ان نلقي نظرة فاحصة على تاريخ اللغات

اللاتينية ، لكي نستطيع ان نحكم –بطريقة علمية سليمة هل تشبه حالة اللغة العربية الآن حالة اللاتينية قديماً؟ وهل سيكون مصيرها شبيهاً بمصير اللغة اللاتينية حتماً ؟

* * *

لاشك في ان اللغات الفرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية والرومانية .. قد تفرعت من اللغة اللاتينية .

وصحيح أنها كانت –في بادىء الامر– لغات عامية ، ثم تحولت –تدريجياً– الى لغات علم وادب راقية .

وصحيح أيضاً ، أن اللاتينية الكلاسيكية ، قد فقدت الحياة ،حيث لم يبق على وجه البسيطة امة او شعب يتكلم بها

هذه كلها من الحقائق الثابتة ، التي لا يمكن لاحد أن ينكرها ، بوجه من الوجوه .

ولكن ... هناك حقائق اخرى ، لابد من اخذها بنظر الاعتبار في هذا المضمار .

ان اللغات التي تفرعت عن اللاتينية لم تنحصر باللغات التي ذكرناها آنفا . بل قد تفرعت عن اللاتينية عشرات اللغات ومئات اللهجات ، إلا أن معظم هذه اللغات واللهجات لم تعش الى يومنا هذا ، بل تركت محلها الى اللغات اللاتينية المتداولة الآن ، وكل واحدة منها قد قامت مقام عدد غير قليل من اللغات واللهجات المندثرة .

ويفهم من ذلك : ان تطور اللغات يعرض الى الانظار نوعين من التطورات : التطور نحو التفرع ، والتطور نحو التوحد . ويسمي الباحثون الطور الاول (طور التجزؤ mercellement)والطور الثاني (طور التوحد : (réunification

إن من يحصر نظره في النوع الاول من التطورات . فلا ينتبه الى النوع الثاني منها .. يبقى بعيداً عن إدراك الحقائق على وجهها الصحيح ، بعداً كبيرا .

فيجدر بنا ان ندرس صفحات تطور اللغات اللاتينية . لنطلع على أطوار (التجزؤ) وعوامله من ناحية . وأطوار (التوحد) وعوامله من ناحية اخرى .

وبهذه الصورة –وبهذه الصورة وحدها – نستطيع أن نصل الى نتيجة علمية ، في هذه القضية الهامة .

تفرع اللغة اللاتينية

– 1 –

ان اللاتينية كانت في بادىء الامر لغة خاصة بمدينة روما وضواحيها المعروفة باسم (لاتينيوم Latinium) ، ثم أصبحت لغة ايطاليا باجمعها ، بسبب توسع حكم الرومان فيها .

وبعد ذلك انتشرت الى جميع البلاد المحيطة بالبحر الابيض المتوسط . مع الفتوحات التي تمت في عهد الامبراطورية .

وكان لاهالي تلك البلاد الشاسعة لغات خاصة بهم ، مثل اليونانية . والآرامية . والعربية ، والقبطية، والغوتية. والبربرية ، والغالية . والايبرية ، والليغورية . والسلتية.. الخ...

وعندما دخلت اللاتينية تلك البلاد ، مع الجيوش والحكام . بدأ نوع من التنازع والتفاعل بينها وبين اللغات الدارجة في البلاد المفتوحة . واما نتائج هذا التفاعل والتنازع . فقد اختلف باختلاف اللغات والاقطار .

في الشرق لم تستطع اللاتينية ان تتغلب على اليونانية . لان اللغة المذكورة كانت مقترنة بحضارة أرقى من حضارة الرومان ، وبأدب أرفع من الادب اللاتيني ، ولذلك أثرت في اللاتينية أكثر مما تأثرت بها . فحافظت البلاد اليونانية على شخصيتها اللغوية . على الرغم من خضوعها لحكم الرومان وسيطرتهم السياسية .

ومن المعلوم ان ذلك كان من جملة العوامل التي أدت إلى انشطار الامبراطورية الرومانية الى شطرين : الامبراطورية الشرقية والامبراطورية الغربية . حيث

اللغة الرسمية (اليونانية) في الشرقية . وظلت (اللاتينية) في الغربيـــة .

وأما في الغرب – في البلاد التي تعرف الآن باسم فرنسا واسبانيا وبريطانيا العظمى – فقد حدث عكس ذلك تماما : تغلبت اللاتينية على لغات البلاد المفتوحة ، لان تلك اللغات كانت محرومة من أدب مدون ومكتوب ، كما أنهـــا كانت غير مدعومة بحضارة راقية .

ولكن هذه الغلبة لم تتم إلا بعد تفاعل وتنازع استمرا نحو خمسة قرون ، ومن الطبيعي ان اللاتينية تأثرت خلال هذه المدة الطويلة بخصائص تلك اللغات . وتغيّرت عن اصلها في كثير من الامور .

* * *

كانت اللاتينية قد ارتقت كثيراً . فأصبحت لغة أدب رفيع جداً . بفضل الخطباء والشعراء والعلماء الذيـــن نبغوا في عهد الامبراطورية الزاهر . أمثال شيشـــرون ، وفيرجيل . ولوكرس ...

ولكن هذه اللاتينية الادبية – اللاتينية الكلاسيكيـة – كانت بمثابة لغةأريستوقراطية . لا يمارسها ولا يحسنها إلا النخبة الممتازة من الحكام والادباء والمتنورين . إنها لم تتغلغل كثيراً بين طبقات العوام . وظل الناس يتكلمون بلهجات لاتينية بسيطة ، كان الرومان يميّزونها عـــن اللاتينية الكلاسيكية ، ويسمونها بأسماء خاصة . مثل : كلام العوام ، اللغة الدارجة ، لغة الفلاحين .

sermo vulgaris
linga usualis
lingum rusticum

ان الفتوحات الرومانية كانت تنشر اللاتينية الكلاسيكية واللاتينية العامية في وقت واحد : الكلاسيكية مع الحكام والمتنورين والعامية بواسطة الجنود والتجار والفلاحيـن الذين استوطنـــوا البلاد المفتوحـــة ، وصاروا يعيشـون ويعملون بين أهاليها الاصليـــين .

ومن الطبيعي أن اللاتينية الكلاسيكية بقيت خلال هذا الانتشار كما هي : بمفرداتها وقواعدها الصرفية والنحوية المدونة في الكتب . ولكن اللاتينية العامية لم تسلم مـــن التغيّر والتحول . لانها كانت تنتقل وتنتشر عن طـريق المشافهة وحدها ، فكان من الطبيعي ان تتأثر خلال هذا الانتشار بخصائص اللغات المحلية القديمة ، ولا سيما من اساليبها الصوتيـــة .

ومما تجب ملاحظته في هذا المضمار ، أن اللغـــات الدارجة في البلاد المفتوحة التي ذكرناها آنفاً . كانت كثيرة ومتنوعة ومتشعبة الى عدد كبير من اللهجات . فكان من الطبيعي ان يؤدي تفاعل اللاتينية العامية مع كل واحدة من هذه اللهجات واللغات المحلية . في تلك الاقاليم المتنوعة . الى تكوين لغات ولهجات عديدة . تختلف عن اللاتينية الاصلية . في كثير من الخصائص .

ولهذا السبب . يرجح الباحثون تسمية هذه اللغـــات واللهجات الجديدة بال (الرومانية) تمييزاً لها عن اللاتينية الاصليـــة .

– 2 –

ولكن .. هذه اللغات الرومانية الجديدة لم تكد تتغلب على اللغات المحليـــة فتستقر – نوعاً ما – على حـــالات واساليب معيّنة . حتى تعرضت الى عوامل قوية مـــن التحولات والتغيرات الجديدة : إذ دخلت البلاد المذكورة لغات جرمانية عديدة . من جراء استيلاء القبائل الجرمانية عليها ، واستيطان عدد غير قليل من القبائل المذكورة في مختلف أقطارهـــا .

ومن الطبيعي . أن قام عندئذ تفاعل وتنازع بيـــن للغات واللهجات الجرمانية التي كان يتكلم بها الغـــزاة والمهاجرون . وبين اللهجات الرومانية التي كان يتكلم بها أهـــالي البـــلاد .

واما نتائج هذا التنازع الجديد . فقد اختلفت – هي

أيضاً – باختلاف البلاد : ففي بريطانيا العظمى وبريطانيا الصغرى تغلبت اللغات الجرمانية على الرومانية ، واصبحت تلك البلاد جرمانية اللغة . ولكن في سائر أقاليم فرنسا واسبانيا وايطاليا – بعكس ذلك – تغلبت اللغات الرومانية على الجرمانية ، حيث نسي الفاتحون والمهاجرون – بمرور الزمان وبالتدريج – لغاتهم الاصلية، وصاروا هم أيضاً يتكلمون باللغات الرومانية . مثل أهل البلاد التي فتحوها وهاجروا إليها .

ولكن ذلك لم يتم ، إلا بعد مرور نحو ثلاثة قرون .

ومن الطبيعي أن يكون قد حدث خلال هذه المدة تفاعل بين لغات الفاتحين ولغات البلاد المفتوحة . ولذلك تأثرت الرومانية بعض التأثر بخصائص اللغات الجرمانية ، فازدادت بذلك تباعداً عن اللاتينية الاصلية .

ومما يجب ألا يعزب عن البال في هذا المضمار : ان اللغات الجرمانية التي دخلت مع القبائل الغازية المعلومة ، الى مختلف أقطار البلاد التي تعرف الآن باسم ايطاليا وفرنسا واسبانيا .. كانت متنوعة ومتشعبة في حد ذاتها . فتفاعل هذه اللغات واللهجات الجرمانية المختلفة مع اللغات الدارجة في مختلف أنحاء البلاد المذكورة ، كان من الطبيعي أن يؤدي الى زيادة أنواع اللغات واللهجات المنحدرة من اللاتينية زيادة كبيرة .

* * *

إن غزوات القبائل الجرمانية للبلاد المذكورة أثرت في مصير اللغة اللاتينية . من وجوه اخرى أيضا : ان هذه الغزوات أدت الى حدوث تطورات وانقلابات اجتماعية وسياسية هامة . فكان من الطبيعي أن تتأثر اللغات من هذه الانقلابات تأثراً عميقاً .

إذ من المعلوم أن الغزوات الجرمانية أدت – في آخر الامر – الى انقراض الامبراطورية الرومانية الغربية وزوالها ، كما أنها سببت تقلص الطبقة المتعلمة والمستنيرة وتلاشيها بسرعة كبيرة .

ومن الطبيعي أن زوال الوحدة السياسية من جراء سقوط الامبراطورية : قد حرم اللاتينية الكلاسيكية من السلطة المعنوية التي كانت تتمتع بها ، لكونها لغة الحكم والادارة في امبراطورية واسعة الارجاء . كما أن تلاشي الطبقة المستنيرة التي كانت تمارس اللاتينية الادبية وترعاها أدى إلى تقلّص ظل اللغة المذكورة الى أقصى حدود التقلّص ، وجعلها تنحصر بين جدران المعابد والاديرة وحدها .

ولا حاجة للبيان ان انسحاب اللاتينية الادبية من الميدان انسحاباً يكاد يكون تاماً ، على المنوال الذي سردناه آنفاً ، ترك الحبل على غارب اللغات العامية ، وفسح امامها مجالا واسعاً للتغير السريع ، والتفرع الذي لا يقف عند حد ، لعدم وجود عائق يعوقه ، وضابط يضبطه .

ان انضمام هذه العوامل الهامة الى عامل التحول والتفرع التي سردناها قبلا ، أدى بطبيعة الحال الى زيادة تباعد اللغات واللهجات الرومانية ، عن اللاتينية الاصلية زيادة كبيرة جدا .

في الواقع ان (شارلمان) الشهير ، قد سعى في القرن التاسع للميلاد الى إحياء الامبراطورية ، وتشجيع التعليم. إلا أن الامبراطورية التي كونها لم تعمر طويلا ، لانه هو بنفسه قسمها بين اولاده الثلاثة . وفتح بذلك الباب للتقسيمات المتوالية بين أحفاده العديدين . ومن المعلوم انه بعد ذلك العهد القصير ، اخذت روابط السلطات المركزية ترتخي بسرعة ، ثم نشأت النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية الخاصة التي عرفت باسم (الاقطاعية) «الفيو داليتية» . فانقسمت البلاد الى عدد لا يحصى من المقاطعات الصغيرة ، وصارت تحتمي كل واحدة منها بقصر محصن ، وتتمتع باستغلال فعلي مطلق.

فلا ترتبط بالمملكة او بالامبراطورية إلا بروابط اسمية بحت ، ثم اخذت الروابط التي تصل هذه المقاطعات بعضها ببعض أيضاً ترتخي فتزول بصورة تدريجية ، الى ان اصبحت كل مقاطعة وكل مدينة منطوية على نفسها ، ومكتفية بذاتها ، ومنعزلة عن غيرها انعزالا يكاد يكون تاماً .

ومن المعلوم ان الامية تفشت في ذلك العهد تفشياً لم يسبق له مثيل فلم يبق من يعرف القراءة والكتابة حتى بين كبار اصحاب المقاطعات وطبقة الحكام والنبلاء . واصبحت الكتابة والقراءة مما يختص به جماعة من رجال الكنائس وحدهم .

ولا حاجة الى القول : ان كل ذلك أوصل تفرع اللغات واللهجات العامية الى حده الاقصى .

* * *

إن العوامل التي ذكرناها الى الآن ، كانت عوامل عامة ، تشمل جميع البلاد التي عرفت باسم (اللاتينية) . ولإتمام سلسلة هذه العوامل المتنوعة لابد لنا من أن نشير الى عامل آخر ، اختص بقسم من تلك البلاد ، دون غيرها هذا العامل الخاص هو تأثير اللغة العربية في اللغة الاسبانية .

من المعلوم أن العرب كانوا استولوا على اسبانيا واستوطنوها ، وأسسوا فيها حضارة راقية ، استمرت مدة طويلة ، تقرب من ثمانية قرون . فكان من الطبيعي ان تؤثر اللغة العربية -خلال هذه المدة الطويلة- في اللغة الاسبانية تأثيراً كبيرا . فاقتبست الاسبانية من اللغة العربية بعض الاصوات التي لم يكن في الاسبانية ما يماثلها. كما اقتبست آلاف الكلمات العربية التي تختلف عن الكلمات اللاتينية اختلافاً جوهرياً من وجوه عديدة .

ولا حاجة الى البيان ان ذلك أدى الى زيادة الفوارق التي كانت حدثت بين الاسبانية وسائر اللغات اللاتينية زيادة كبيرة .

هذا ، ولإتمام بحث الاحداث والعوامل التي أثرت في تطور اللغة اللاتينية وتفرعها ، لابد لنا من أن نلقي نظرة عجلى على عمل الديانة المسيحية في هذا المضمار أيضاً .

لا شك في ان الديانة المسيحية ساعدت على انتشار اللغة اللاتينية في اوربا الغربية مساعدة كبيرة .

لان المركز الاوربي للديانة المذكورة كان مدينة روما نفسها : أنها تنظمت هناك ، وانتشرت من هناك ، كما أن الاناجيل التي تجمعت هناك وانتشرت من هناك الى البلاد الغربية كانت بالنصوص اللاتينية ، فكان من الطبيعي -والحالة هذه- ان ترتبط الديانة المسيحية في تلك البلاد باللغة اللاتينية ارتباطاً وثيقا ، وأن تساعد على انتشارها مساعدة كبيرة .

إلا أن الديانة المسيحية لم تلتزم بنشر اللاتينية الكلاسيكية ، بل عملت على نشر اللاتينية العامية . وذلك لانها انتشرت -في بادىء الامر- بين عوام الناس ، دون الخواص . لان الحكام كانوا يعارضونها أشد المعارضة ، حتى انهم ظلوا يضطهدون معتنقيها بشتى أساليب الاضطهاد ، مدة تزيد على ثلاثة قرون . فكان من الطبيعي أن يخاطب المبشرون الناس باللغة الدارجة بينهم ، لا باللاتينية الادبية التي كانت شبه غريبة عليهم .

ومما يجب ملاحظته في هذا الشأن أن المذهب الكاثوليكي الذي نشأ في إيطاليا ، وانتشر منها الى غرب اوربا ، كان يلقي مهمة تلاوة الكتاب المقدس على عواتق رجال الدين وحدهم . وما كان يفرض ذلك على سائر الناس بوجه من الوجوه . ولهذا السبب لم تؤثر لغة الانجيل في كلام الناس تأثيراً يذكر ، بل بقيت اللغة المذكورة كلغة خاصة برجال الدين .

حتى أن المجمع الديني الذي انعقد في مدينة (تور) سنة 814 اتخذ قراراً صريحاً في هذا الشأن ، فأوصى بـ «تفهيم كلام الله الى الناس باللغات التي درجوا عليها» .

ولذلك نستطيع ان نقول ان الكنيسة المسيحية احتفظت باللاتينية الادبية لنفسها ، ونشرت بين الناس اللاتينية العامية وحدها .

ومن المعلوم أن فكرة «وجوب تلاوة الانجيل من قبل جميع الافراد» لم تظهر الى عالم الوجود الا بعد ظهور البروتستانتية ، في القرن السادس عشر للميلاد. ولكن حتى ذلك التاريخ كانت فروع اللاتينية قد تباعدت عن أصلها كثيراً ، وكونت عدة لغات ادبية راقية جدا . كما ان اللغات الجرمانية أيضاً كانت خرجت عن اطوار البدائية ، وانتجت آثاراً أدبية هامة . ولهذا السبب نجد أن فكرة «وجوب قراءة الانجيل من قبل جميع الناس» اقترنت بفكرة «ترجمة الانجيل الى اللغات الدارجة بين الناس». وهذه الفكرة استوجبت —على الفور— ترجمة الانجيل الى الالمانية والفرنسية والانكليزية ... ولهذا السبب فقدت اللاتينية —بعد ظهور البروتستانتية— الشيء الكثير من مكانتها ، حتى بين رجال الدين أنفسهم ..

وخلاصة القول : ان الكنيسة المسيحية «حافظت» على اللاتينية الادبية ، إذ نشرتها بين رجالها ، ولكنها لم تعمل على نشرها بين الناس ، فتركت بذلك أمام اللغات و اللهجات العامية ، مجالا واسعاً للتنوع والتفرع والانتشار .

* * *

يتبين من كل ما سبق : أن سلسلة طويلة ومعقدة من الاحداث والعوامل التاريخية —السياسية والاجتماعية والفكرية— تضافرت على تفريع اللغة اللاتينية الى فروع كثيرة ، وادت الى تباعد هذه الفروع بعضها عن بعض من ناحية ، وعن اللاتينية الاصلية من ناحية اخرى .

وخلال هذه الاحداث التي بدأت قبل الميلاد ، واستمرت حتى القرن الثاني عشر للميلاد— تغايرت وتخالفت اللغات الرومانية التي تكونت على أراضي كل من فرنسا وايطاليا واسبانيا ، كما أنها تشعبت الى عدد كبير من اللهجات .

وهذه اللغات واللهجات وصلت الى حدود التعدد والتنوع خلال القرون الوسطى ، من جراء تأسيس النظم الاقطاعية في مختلف أنحاء البلاد ، وتفشي الامية بين الخواص فضلا عن العوام ، وتضاؤل الاتصال بين مختلف المقاطعات ، وانطواء المدن على نفسها حول القصور المحصنة التي شيدت في كل الجهات ...

تكون اللغة الفرنسية

ولكن ... بعد عهود التفرع والتجزؤ التي استمرت بهذه الصورة مدة تزيد على عشرة قرون ، وقعت احداث سياسية واجتماعية وفكرية اخرى ، عملت عكس ما عملته الاحداث السالفة ، فأدت الى (توحد) اللغات واللهجات حول مراكز عديدة ، بصورة تدريجية .

إني لا أرى لزوماً لتتبع (تيارات التوحد) التي اخذت ترتسم في جميع البلاد اللاتينية بعد أدوار التجزؤ التي استعرضتها وشرحتها آنفاً ، بل سأكتفي بذكر ما حدث في فرنسا وحدها .

يجمع علماء اللغة على أن اللهجات الرومانية التي نشأت فوق أراضي فرنسا الحالية قد تجمعت في صنفين أساسيين : اللهجات الشمالية واللهجات الجنوبية ، ويسمون الاولى (لهجات الاوبل) والثانية (لهجات الاوك) . وذلك بالنسبة الى الكلمة التي تستعمل في كل منهما بمعنى (نعم) وهي (أوبل) في الشمال و (أوك) في الجنوب .

اللغة الفرنسية تمثل أرقى الدرجات التي وصلت اليها لهجات (الاوبل) والبروفنسية تمثل أرقى لهجات (الاوك) والفرق بين الاثنين كبير جداً ، إذ يقول العالم اللغوي المشهور (ميه) انه يعادل الفرق الموجود بين اللغة الاسبانية واللغة الايطالية . وطبيعي ان هذا الفرق الكبير لا يترك مجالا للتخاطب والتفاهم بين أصحاب اللغتين دون دراسة خاصة أو وساطة ترجمان .

واما سبب حدوث هذا الاختلاف الكبير فيعود الى الاختلاف في (نسبة تأثير) كل من اللاتينية والجرمانية في شمال فرنسا وجنوبها .

ان اللهجة التي انحدرت منها اللغة الفرنسية كانت في بادىء الامر لهجة خاصة بالمنطقة التي تحيط بمدينة باريس الحالية .

ومن المعلوم ان المنطقة صارت مهداً للاسرة التي أسست المملكة الفرنسية . ولذلك اكتسبت لهجتها مكانة سياسية وادبية خاصة ، فأخذت تتغلب على اللهجات الاخرى تبعاً لتوسع نطاق حكم الاسرة المذكورة ...

ان تغلب وانتشار الفرنسية قد تم بسهولة نسبية في مناطق لغات الاوبل ، ولكنه تأخر كثيراً في مناطق لغات الاوك ...

ومن الغريب ان اللغة البروفنسية قد نمت وازدهرت قبل ازدهار الفرنسية ، والادب البروفنسي اشتهر قبل اشتهار الادب الفرنسي ، لان الفنانين الذين عرفوا باسم (تروبادور) كانوا ينظمون أشعارهم ويلحنونها . ويغنونها باللغة البروفنسية .

ولكن حرمان تلك البلاد من حكومة مركزية قوية ، ولا سيما تعرضها للحروب الدينية الدموية كان من العوامل التي حالت دون استمرار هذا الازدهار ...

وخلال هذه القرون العديدة كانت الفرنسية خرجت من طور (اللغة العامية) وتحولت الى لغة كتابة وادب .

ثم أخذ هذا الادب يزدهر بعد بدء عصر النهضة والانبعاث ولاسيما خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد ، حيث نشأ ونبغ طائفة من الادباء العظام ، الذين كتبوا وألفوا بها مجموعة كبيرة من الآثار الخالدة.

لكن .. من المؤكد -بعكس ذلك- انه في عصر الادب الكلاسيكي الزاهر ، وحتى في خلال القرن الثامن عشر ، كان معظم الفرنسيين يرطنون بلهجات كثيرة ، تختلف عن اللغة الادبية بخصائص عديدة .

حتى أن قضية اللهجات استرعت اهتمام رجال الثورة العظمى ، في اواخر القرن الثامن عشر ، وحملتهم على التفكير فيها تفكيراً جديا انتهى بهم الى اتخاذ تدابير عديدة لمعالجة مشكلتها معالجة مثمرة .

كان الراهب غريغوار قدم الى مجلس الثورة سنة 1790 تقريراً مسهباً عن حالة اللغة الفرنسية ، وكان مما قاله في التقرير :

«اننا نستطيع ان نؤكد -دون مغالاة- بأن نحو ستة ملايين من الفرنسيين -ولاسيما في الارياف- لا يعرفون شيئاً عن اللغة القومية . وعدداً لا يقل عن ذلك -اذا عرفوا شيئاً منها- فانهم لا يستطيعون أن يواصلوا التحدث بها».

هذا . ولكي نقدر دلالة هذه الارقام حق قدرها ، يجب أن نلاحظ أن مجموع سكان فرنسا في ذلك التاريخ كان نحو خمسة وعشرين مليوناً على أكبر تقدير . ويفهم من ذلك أن نصف سكان فرنسا ماكانوا يتكلمون بالفرنسية.

وفضلا عن ذلك أضاف التقرير إلى ماسبق . من العبارات : «والذين يحسنون التكلم بها بفصاحة لا يتجاوزون الثلاثة الملايين . وأما الذين يستطعون كتابتها على وجه الصحة فهم أقل من ذلك أيضاً»

(فهب مجلس الثورة لتدارك الحال واتخذ ما أمكنه من التدابير و منها أنه أصدر بياناً كان مما جاء فيه) :

«أيها المواطنون .

فليدفع كلا منكم تسابق مقدس للقضاء على اللهجات في جميع أقطار فرنسا» . . لان . . «تلك اللهجات إنما هي من بقايا عهود الاقطاع والاستعباد» .

(وطفقت السلطة الفرنسية من ذلك التاريخ حتى هذا اليوم تحارب اللهجات العامية بكل الوسائل : التعليم .

الخدمة العسكرية ، وحديثاً : الصحافة ...) وغني عن البيان أن السينما والاذاعة . . انضمت إلى العوامل المذكورة أخيراً ، وصارت تساعد على تعميم اللغة الفصحى مساعدة كبيرة .

فاذا قيل لنا الآن : «لافرق بين لغة الكلام ولغة الكتابة في فرنسا وجب أن نعلم علم اليقين بأن ذلك إنما تم بفضل الاحداث التي توالت منذ مدة تزيد على ثمانية قرون . ولاسيما بفضل الجهود الجدية التي بذلت — ولا تزال تبذل — والتدابير الفعالة التي اتخذت — ولاتزال تتخذ منذ بدء حملة الثورة الكبرى على اللهجات العامية .

ومع هذا كله ، يجب أن نلاحظ بأن القول أنه (لايوجد في فرنسا فرق بين لغة الكتابة ولغة الكلام) لايخلو من المغالاة فان ذلك ، إذا كان صحيحاً بالنسبة إلى معظم المدن والقصبات الكبيرة ، فانه بعيد عن الصحة بالنسبة إلى كثير من القرى في بعض الأ يالات .

فانه من الثابت بأن هناك ملايين من الفرنسيين لايزالون في طور (ثنائية اللغة) ، فانهم يتكلمون في بيوتهم ولاسيما مع العجائز والجدات ، بلهجات عامية ولغات خاصه وأن كانوا يتقنون الفرنسية الفصحى ويتكلمون بها خلال اتصالاتهم الخارجية .

فاللهجات العامية في فرنسا لم تندثر تماماً وإن كانت قد تضاءلت كثيرا .

فأرى أن أشير هنا إلى بعض الامثلة التي صادفتها خلال مراجعة مصادر بحثي هذا :

فان هناك جماعات تقول j'avons عوضاً عن j'ai وذلك قياساً على قولهم : nous avons ومن يقول il ta té في مقام il a été ، ومن يلفظ كلمة rouge على شكل rouche ومن يقول remettez-vous في مقام asseyez-vous ومن يسمي الحديقة courtile عوضا عن jardin ، ومن يقول j'espère tel بمعني j'attends tel

كل هذا على الرغم من جميع الاحداث والعوامل التي ذكرناها آنفاً ، وعلى الرغم من جميع الجهود التي بذلت منذ أجيال عديدة .

* * *

ويتبيّن من كل ماسبق :

أن رجال الفكر والسياسة في فرنسا لم يقولوا : فلندع الناس يتكلمون باللهجات التي ألفوها ، بل قالوا : يجب أن نقضي على هذه اللهجات .

ورجال القلم والأدب لم يقولوا : فلنكتب باللهجات الدارجة بين الناس ، بل قالوا : لنسع إلى رفع لغة الحوار والكلام إلى مستوى لغة الكتابة والادب . . .

والا . . .لما تقدمت اللغة الفرنسية تقدمها المعلوم ، ولما كتبت بها الآثار الكلاسيكية الخالدة . . . . .

ولاظهر إلى عالم الوجود شيء من الادب المعاصر الزاهر . . .

الفوارق الاساسية
بين تاريخ اللاتينية وتاريخ العربية

— 1 —

بعدما استعرضت وشرحت الاحداث والعوامل التي تضافرت على تفريع اللغة اللاتينية إلى فروع كبيرة ، وعلى تبعيد هذه الفروع بعضها عن بعض من ناحية ، وعن اللاتينية الاصلية من ناحية أخرى . . .

أعتقد بأن القراء قد أدركوا على الفور الفوارق العظيمة التي ميزت تاريخ اللغة العربية عن تاريخ اللغات اللاتينية ، من وجهة هذه العوامل والاحداث :

أ) فان اللغة العربية بعد أن استقرت في العالم العربي الحالي . . . لم تتعرض إلى هجمات وغزوات لغات جديدة ، كما تعرضت إليها اللغات الرومانية ، من جراء استيلاء القبائل الجرمانية واستيطانها مختلف أنحاء البلاد .

ب) ان البلاد العربية لم تُبتل بتفتّت سياسي واداري واقتصادي ، مثل الذي ابتليت به البـــلاد الرومانية في عصور الاقطاع الطويلة .

ج) ان الامية المطلقة لم تتفش في البلاد العربية في وقت من الاوقات بقدر ما تفشت في العالم الغربي خلال العصور الآنفة الذكر .

د) ان البلاد العربية لم ينعزل بعضها عن بعـــض انعزالا يشبه الانعزال الذي حصل في البـلاد الرومانية .

بل ظل الاتصال بين مختلف أقطارها قائما ، بفضل القوافل التجارية التي لم تنقطع عن الازدهار من ناحيته ، وقوافل الحج التي ظلت تنقل جماعات كبيرة من المسلمين كل سنة ، من مختلف أنحاء البلاد الى الحجاز من ناحية أخرى

ه) ان الديانة الاسلامية التزمت العربية الفصحـى التزاماً تاماً،وظلت تساندها وتؤازرهـا دون انقطاع ،ولم تتخل عنها للهجة من اللهجـات ،في وقت من الاوقات «»

ولهذه الاسباب الاساسية كلها . اختلف مصير اللغة العربية عن مصير اللاتينية اختلافاً كليا .

فان الاحداث والعوامل التي ذكرناها آنفاً قد تضافرت على إدامة حياة اللغة العربية ، في حين ان العوامل الـتي احاطت باللغة اللاتينيّة انتهت الى اقصائها عن ميـــدان الاستعمال ، وجعلها تنتقل الى عالم الاموات . بعد أن أنجبت «اللغات اللاتينية» المعلومة الآن .

— 2 —

ولإزالة جميع الشكوك التي قد تساور بعض الاذهان أرى من المفيد أن اوضح اهم الفوارق التي ذكرتها آنفاً ، بشيء من التفصيـل .

ا) لقد قلت : ان اللغة العربية — بعد أن استقرت في العالـم العربي الحالي — لم تتعـرض الى غـــزوات أخرى ، كالتي تعرضت اليها اللغات الرومانية ، من جراء استيلاء القبائل الجرمانية ، واستيطانها في مختلف أنحـاء البلاد .

الواقع أن عدة اسر مالكة غير عربية استولت عـلى زمام الحكم في مختلف البلاد العربية ، في تواريخ مختلفة إلا أن حكم تلك الاسر المالكة لم يتم بفضل جماعـات كبيرة من بني قومهم ، ولم يترافق باستيطان عدد كبير من تلك الجماعات ، ولذلك لم تلبث تلك الاسر المالكة أن استعربت ، فتبنّت لغة البلاد .

ولم يشذّ عما قلناه آنفاً إلا اسرة مالكة واحدة ، لهي اسرة بني عثمان ، فانها لم تستعرب مثل سائر الاســر المالكة ، لان عاصمة ملكها كانت —وظلت— خـارج البلاد العربية . ونستطيع ان نقول : انها حكمت البـلاد العربية —وظلت تحكمها— من الخارج ، على مبعدة منها. وفضلا عن ذلك كانت لغتها ضعيفة جداً حيال العربية ، ولهذا السبب تأثرت هي بها اكثر مما أثرت فيها. فتأثير لغة بني عثمان في اللغة العربية ظل محدوداً ، على الرغم من استمرار حكمها مدة تقرب من أربعة قرون .

ولا نغالي اذا قلنا : ان تأثيرها الاساسي لم يتجـاوز كثيراً أمر تأخير نهضة الادب العربي ، من جراء عـدم وجود دولة عربية تشجع الادب ، وتهيء له وسائل التقدم والنهـوض .

* * *

ب) وقلت : إن البلاد العربية لم تُبتل بتشتّـــت وتفتّت يماثل أو يقارب ما ابتليت به البـلاد الاوربية خلال العهود الاقطاعية .

«» يضاف الى هذا كله ان الشعوب العربية تشعـر بوحدتها وتطالب بها ، على حين ان الشعـوب اللاتينيـة تشعر على العكس بقومياتها مستقلة ولا يود أي منها الاندماج مع غيره في قومية واحدة —(اللســـان العربي)—

الواقع أن البلاد العربية أيضاً فقدت «الوحدة السياسية. وانقسمت الى دول ودويلات عديدة ، إلا أن عدد هذه الدول والدويلات ظل محدوداً . ولم يصل الانقسام السياسي في العالم العربي – حتى في أسوأ عهود «ملوك الطوائف» ولو من بعيد – إلى درجة التفتت العام الذي حدث في العالم الغربي ، حيث أصبحت كل مقاطعة – وكل مدينة تقريباً – مستقلة ومنطوية على نفسها.

ج) وقلت : ان الديانة الاسلامية التزمت العربية الفصحى كل الالتزام،ولم تتخل عنها للهجة من اللهجات العامية ، في يوم من الايام .

وذلك لانها لم تعهد بمهمة تلاوة القرآن الى أئمة المساجد وخطباء الجوامع وحدهم –كما فعلت الديانة المسيحية في العالم الروماني– بل فرضت ذلك على كل مسلم ومسلمة . فصار لزاماً على كل فرد أن يتلو طائفة من الآيات القرآنية ، كل يوم خلال الصلوات الخمس .

حتى خلال الصلوات التي تؤدي بالجماعة، يترتب على كل فرد مؤتم بأحد المصلين ، أن يستمع الى ما يتلوه الإمام جهراً من ناحية ، وأن يتلو –بعد ذلك– هو بنفسه سراً آيات اخرى من ناحية ثانية .

ان هذه الاحكام الدينية استوجبت إنشاء مدارس وكتاتيب كثيرة لتعليم القرآن –قراءة وحفظاً– الى جميع الاطفال . وهذه المدارس والكتاتيب عمت جميع أنحاء البلاد ، ولم تنقطع عن العمل ، حتى في أسوأ عصور الانحطاط .

وكل ذلك ، حال دون انقطاع صلة العرب بالعربية الفصحى ، بل ظل يذكرهم بها ، ويوصلهم اليها ، على الدوام ، عن طريق السماع المستمر ، والتلاوة .

ونستطيع أن نقول : أن فكرة «التعليم العام» التي ظهرت في العالم الغربي مع ظهور البروتستانتية في القرن السادس عشر للميلاد ، كانت قد تولدت في العالم العربي منذ ظهور الاسلام ، وصارت تنفذ فيه بصورة فعلية وبمقياس واسع ، منذ القرن الاول للهجرة .

ولذلك عم تعليم القرآن في جميع الجهات بسرعة كبيرة . ومن المعلوم أن لغة القرآن ، هي اللغة العربية الفصحى .

* * *

ومما تجب ملاحظته في هذا المضمار أن الكنائس المسيحية في البلاد العربية ، هي أيضاً انتهت الى التزام العربية الفصحى ، فان الكنائس الشرقية جعلت العربية لغة الصلوات والمواعظ منذ قرون عديدة . كما أن البروتستان أيضاً اعتمدوا ترجمة الانجيل الى اللغة العربية. والكنيسة الارثوذكسية كذلك ، جعلت العربية لغة الطقوس والصلوات والمواعظ ، بعد أن تخلصت من ربقة اليونانية .

ولهذه الاسباب العديدة ظل اتصال العرب باللغة الفصحى وثيقاً ، فلم يترك مجالا لتباعد لغة الكلام عن لغة الكتابة تباعداً كبيرا .

والفوارق بين لغة الكلام ولغة الكتابة –بين العامية والفصحى– لم تتعد قط حدود فوارق اللهجات ، التي لا تحول دون تفاهم اصحابها ، بشيء يسير من الجهد والانتباه ..

واذا كان الناس لا يتكلمون الآن بالعربية الفصحى فانهم لا يعجزون عن فهمها ، ولو كانوا اميين .

فضلا عن ذلك اننا نلاحظ ان اللغة الفصحى صارت تزداد تأثيراً وتغلباً على اللهجات العامية شيئاً فشيئاً، منذ بدأت النهضات الفكرية والقومية في مختلف الاقطار العربية . حتى أن التقدم في هذا المضمار اصبح يظهر الى العيان –ويلمس لمس اليدين– حتى خلال عقد واحد من السنين . وهذا على الرغم من عدم وجود خطة موضوعة لمكافحة العامية ونشر الفصحى بصورة منتظمة فعّالة .

ان اللغة الفصحى هي الآن لغة القراءة والكتابة والدرس ، في جميع المدارس والمعاهد العربية ، التي صارت تعد بعشرات الآلاف والتي تجمع كل يوم عدة ملايين من التلاميذ والطلاب .

والجرائد اليومية تصدر في جميع الاقطار العربية باللغة الفصحى . ومن المعلوم أنها تطبع كل يوم مئات الآلاف من النسخ . تتناولها أيدي الملايين من القراء . من مختلف الطبقات .

فلا يجوز — والحالة هذه — تشبيه العربية الفصحى باللاتينية ، بوجه من الوجوه .

انها استطاعت أن تتغلب الى الآن على جميع عوامل البلبلة التي تألبت عليها خلال عصور الانحطاط الطويلة ، فلم تفقد نسغ الحياة ، حتى في عهود حكم الاجنبي القاسي ، وعصور الاستعمار الخانق .

فلا يمكن أن تفقد حيويتها بعد الآن ، ويخطيء من يظن أنها ستقف عن النمو والازدهار في عصور النهضة وعهود الاستقلال ،و.. لاسيما.. بعد بزوغ فجر الاتحاد

انها لا تزال حية ونامية ، ولاشك في أنها ستزداد نمواً في مستقبل الايام ، وستصبح أشد حيوية مما هي الآن.....